الفصل الثاني عشر

أعجوبة المعاقين على مر العصور

هيلين كيلر

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ..... ﴾[1]

آية كريمة دائماً ما أرددها كلما استوقفتني إحدى الشخصيات النابهة التي لم تكن آلامها لتثنيها عن المسير أو تمنعها من بلوغ هدفها أحجار الطريق بل انحنت تجمعها لتشيد منها صرحاً تبلغ أسباب السماء وتناطح به هام السحاب ... أقف طويلاً أتأملها فلا أجد ما أقول إلا:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ..... ﴾

أن يبدع الإنسان رغم حرمانه من نعمة البصر فهذا وارد كثيراً . ألم يكن عميد الأدب العربي " طه حسين " كفيفاً ؟

أن يبهر العالم بالروائع وهو أصم فهذا حاصل أليس بيتهوفن الموسيقار الشهير أصم ؟!

ولكن أن يأخذ الإنسان من كل أسباب المجد طرقاً وقد حرم من أهم حاستين تربطانه بالعالم الخارجي فأنا أتكلم فقط عن " هيلين كيلر " تلك الأسطورة متعددة الإعاقات التي تحدت طوال حياتها ظلمات ثلاث وتلمست طريقها خلالها مستعينة بشمعة الإرادة ، فهيلين كيلر التي ملأت الدنيا في زمانها وشغلت الناس وظلت قصة حياتها إلى يومنا الحالي مصدر إلهام الكثيرين ، لم

١- سورة يوسف : من الآية ١١١.

تكن إلا فتاة صماء عمياء بكماء ، ومع ذلك فقد بلغت من الأهمية أن قال عنها " Mark Twain " الأديب الأمريكي الساخر (أهم شخصين في القرن العشرين هما نابليون وهيلين كيلر).

ولدت هيلين كيلر عام ١٨٨٠م طفلة معافاة سليمة الحواس ولكن بعدما أتمت عاماً ونصف العام أصابتها حمى شديدة حار الأطباء في نوعها وعجزوا عن علاجها ، فلم يجدوا وقد أدركهم اليأس إلا أن ينفضوا سائلين الله أن يلهم والديها الصبر على فقدان طفلتهم ، ولكن إرادة الحياة كانت حية في هيلين منذ طفولتها فلم تمض عدة أيام حتى دبت الحياة في جسد الطفلة الصغيرة وعادت الحمرة تعلو وجنتيها ولكن والديها الذين غمرتهما الفرحة بعودة الروح إلى صغيرتهما لم يدركا أن المرض قد سلبها قبل أن يغادر جسدها الصغير أهم حاستين وهما حاستا السمع والبصر ومن ثم النطق ... عاشت هيلين في سنواتها الأولى حياة عشوائية بهيمية لا تفقه من الحياة غير حاجاتها الفطرية ولم تجد الصغيرة طريقة للتواصل مع الآخرين في عالمها الدامس الصامت ، إلا بعض الإيماءات والإشارات البدائية ، حتى إذا ما فشلت في التعبير عن نفسها والحصول على رغباتها انتابتها نوبات غضب شديدة وضجت بالبكاء والعويل وتحطيم كل ما يصادف طريقها . ولم تجد أسرتها وقد وجدوا أنفسهم أمام فتاة صعبة المراس أعيتهم الحيل في التعامل معها إلا أن يبحثوا عن معلمة تعاونهم في تربيتها وتضيء لها بعض ما أظلم من طريقها.

ولم تكن هذه المعلمة إلا " Anne Sullivan " الشابة الصغيرة ذات الواحد وعشرين ربيعاً تتصور أن حياتها سترتبط بحياة تلميذتها منذ ذلك اليوم حتى آخر يوم في حياتها.

فمنذ ذلك اليوم بدأت المعلمة محاولاتها الدؤوبة لتعليم هيلين . كان أول ما لفت نظر المعلمة هو عادات هيلين البدائية ومسلكها العدواني مع الجميع فقررت المعلمة أن تعلم تلميذتها وقبل كل شيء الطاعة والنظام ولم تمر فترة بسيطة حتى تحولت هيلين الفتاة المرعبة إلى طفلة وديعة هادئة. وكانت المعلمة تكتب بإصبعها أسماء الأشياء على كف تلميذتها هيلين وبهذه الطريقة حفظت هيلين هجاء العديد من الأسماء وإن لم تكن تدرك الصلة بين الكلمة والفكرة التي تمثلها حتى أتت لحظة التنوير في حياة هيلين والتي سجلتها في كتابها الرائع " The story of my life " حيث تقول ... ذهبنا إلى البئر وكان هناك شخص يضخ الماء ، ووضعت معلمتي يدي تحت المضخة ، وبينما كان تيار من الماء البارد ينهمر على إحدى يدي كانت معلمتي تكتب بإصبعها على يدي الأخرى كلمة " water " في البداية ببطء ثم بعد ذلك بسرعة ... وقفت ساكنة وكل تركيزي منصب على حركة أصابعها وفجأة شعرت بحالة وعي ضبابية لشيء كان منسياً ، بالإثارة المصاحبة لفكرة عائدة وهكذا تكشف أمامي غموض اللغة ، وكم كانت فرحة هيلين عظيمة وقد انفتح لها باب العالم الخارجي الذي كان موصداً دونها ولم تعد إلى البيت إلا بعد أن سألت عن اسم كل شيء مرت به.

منذ تلك اللحظة بدأت هيلين رحلتها مع المعرفة تلك الرحلة التي لم تكن زادها فيها إلا العزيمة والإصرار والإرادة الصلبة ، فتعلمت القراءة بطريقة " Braille " التي أصبحت متعتها المفضلة ، وانكبت على الكتب تلتهم ما تقرؤها أصابعها . وعن طريق القراءة تعلمت الكتابة وتمكنت منها بل فاقت في أسلوبها الأدبي أقرانها من المبصرين السامعين ، وعندما سئلت عن سبب غرامها بالكتب أجابت هيلين: لأنها تحدثني عن الكثير من الحقائق الممتعة ، عن الأشياء التي لا

أستطيع مشاهدتها ، كما أن الكتب بخلاف الناس لا تتعب ولا تمل ولا تتضايق فتظل تحدثني المرة تلو الأخرى عما أود معرفته ، ثم ما هي إلا فترة بسيطة حتى تسمع عن فتاة صماء استطاعت تعلم الكلام فأصرت على المحاولة والخضوع للتجربة وبذلت العديد من المحاولات المضنية لتعلم المحادثة ، فهي الفتاة الصماء التي لم تسمع الكلام فكانت تضع يديها على حنجرة المعلمة وشفتيها حتى تتبين مخارج الحروف ورغم هذه المحاولات المستميتة فإن كلامها لا يفهمه إلا المقربون منها.

دخلت هيلين الكلية لتدرس جنباً إلى جنب مع فتيات مبصرات متحدية إعاقتها والجميع إما تنبأ بفشلها أو أشفق عليها من مرارة الفشل ...

لتكون أول عمياء صماء تنال درجة جامعية ، وكانت معلمتها الرائعة معها في قاعة المحاضرة تتهجى في يد هيلين بصبر متناه كل ما يقوله الأستاذ المحاضر ، وفي المنزل كانت تنقب لها في القواميس عن معاني الكلمات الجديدة ، وتقرأ لها مرات عديدة الكتب التي لم تكن مكتوبة بطريقة " Braille " .

بلغت هيلين من الثقافة قدراً عظيماً وكانت إلى جانب ثقافتها الواسعة تتقن أكثر من لغة قراءة وكتابة ، فبالإضافة إلى الإنجليزية أتقنت الفرنسية والألمانية واليونانية ، وبعد تخرجها دارت هيلين ومعلمتها المخلصة في جميع أنحاء العالم تلقي المحاضرات وتقوم بحملات لجمع التبرعات للجمعيات التي تعنى بالمعاقين الصم والمكفوفين وتبصر العالم بحقوق المعاقين ، وقد لازمتها معلمتها في جولاتها إلى أن توفيت عام ١٩٣٦ ...

ألفت هيلين العديد من الكتب والمقالات التي نشرت في الصحف والمجلات والتقت جميع رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية في عهدها ، كما التقت بالعديد

من الشخصيات المشهورة ومنحت العديد من الأوسمة ، وتوفيت هيلين عام ١٩٦٨ عن عمر يناهز الثامنة والثمانين لتسطر لها مكاناً بين الخالدين ولتكون دليلاً ناطقاً على أن إرادة الإنسان أقوى من كل الألم والمحن وظروف الحياة الصعبة ولتضرب لنا أكبر مثال على قدرة الإنسان على فلسفة الألم ...

وأذكر أنني قرأت قصة هيلين أكثر من مرة ولكن عندما قرأتها للمرة الثانية لم أكن أبحث عن هيلين بل كنت أفتش عن معلمتها فكنت أجدها تارة مع هيلين تساندها في أحد المواقف وكنت أسمعها تارة تتحدث مع هيلين وتوجهها بحنان الأم وكنت أراها أحياناً ترقبها من بعيد فلم أفقد لها أثراً في كل صفحة من صفحات القصة ، وكما بهرتني هيلين شدتني هذه المعلمة ، وكما أعجبت بهيلين أسرني إخلاص هذه المعلمة ، فما فرغت من قراءة القصة حتى تجدد إيماني بالدور الكبير الذي يؤديه المعلم في حياة تلاميذه ، وزاد اعتقادي بأهمية الرسالة التي يحملها والتي أضحت مع الأيام وظيفة روتينية مجردة من أهدافها السامية وعقداً بين طرفين فما أكثر المعلمين ولكنهم في كثرتهم .... !!

أعود وأتساءل: من الأجدر بالثناء هيلين أم معلمتها؟ قالوا أنه لو توفرت لهيلين معلمة أفضل عشر مرات من " آن " لم تكن لتنجز ما أنجزته بعد إرادة الله لو لم تكن هيلين نفسها تملك في ذاتها مقومات الذكاء والنجاح ولكنهم قالوا أيضاً لو كانت هيلين أذكى عشر مرات مما هي عليه لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه لولا الله الذي سخر لها معلمة مثل " آن " ، رحلت آن عام ١٩٣٦ بعد أن خلفت وراءها إنجازها الناطق والذي سيظل دائماً مصدر إلهام الكثيرين من المعلمين وليكون بصمة لها يشهدها الأولون والآخرون .

واليوم وبعد مرور حوالي ستين عاماً على وفاتها مازالت تسمى باسمها الكثير من المدارس والجهات ، تقول " آن " عرفت منذ سنوات أن أكبر مكافأة يحصل عليها المعلم هي أن يرى الطفل الذي قضى الوقت في تعليمه وقد أضحى شخصية هامة ذات ثقل في هذا العالم وأن يصل إلى علمه أن إنجازه كان مصدر إلهام للعديد من المعلمين.

وأؤكد لك أيتها المعلمة الرائدة والعظيمة بأنك قد نلت المكافأة التي تستحقيها

مبدعون رغم الإعاقة

لقد وجد في التاريخ القديم والحديث أناس أثبتوا للبشرية جمعاء أن الإصابة بإعاقة أو أكثر ليست نهاية العالم وأن الإرادة القوية مدعومة بالموهبة تجعل من صاحب الإعاقة بطلاً أو فناناً مبدعاً يسبق الأسوياء بأشواط كبيرة. ومن الإعاقات التي قد تصيب الإنسان نقص السمع بدرجاته المختلفة مما يعزل المعاق عن الأصوات الخارجية وإذا حصلت هذه الإصابة في السنوات الأولى للطفل فتكون مسؤلة عن تأخر في النطق ويغدو الأصم أبكماً، ومع ذلك لم يستطع الصمم أن يثني بعض ضحاياه من المضي قدماً في تيار الحياة الهائج ولكي يثبت هؤلاء المعاقون إن الإنسان مجموعة رائعة من القدرات إن توقفت إحداها عن العمل لسبب ما عوضت أخرى بوجود محرك الإيمان والإرادة والتصميم وكل منا يصادف أثناء ممارسته اليومية أعداداً كبيرة من الصم الذين ابتعدوا عن نشاطات الحياة المختلفة بسبب عجزهم واختاروا البقاء في الظل خوفاً وطمعاً وساعدهم على ذلك فقر الظروف والإمكانيات العامة المقدمة لهم فتعاضد ضعف الإرادة مع قلة إمكانيات التأهيل والتدريب فكانت النتيجة هرباً من العمل النافع والحياة الاجتماعية، وكم يأخذنا العجب من أصم يطرق بابنا وقد أتقن القراءة والكتابة والتهم من شتى أنواع الثقافات والعلوم الشيء الكثير ومارس هوايات رياضية وفنية عديدة.

إن تصفح كتب التاريخ يبرز لنا شخصيات كان تعاني من الصمم ولم يكن ذلك الأمر عائقاً لها من أن تنزل بصمة واضحة في تطور الإنسانية جمعاء ومن تلك الشخصيات ...

بيتهوفن
الموسيقار الأصم

ولد لودفيج فان بيتهوفن في مدينة بون بألمانيا عام ١٧٧٠م وسعى والده إلى تعليمه أصول العزف على البيانو والقيثارة وهو في الثالثة من عمره ، تتلمذ في البداية على يد موتسارت ثم على يد هايدن – نشأ بيتهوفن فقيراً وعاش فقيراً حتى آخر لحظة من حياته دون أن يحيد عن مبادئه العليا التي اعتنقها ، وفي عام ١٨٠٢م عندما كان بيتهوفن يبلغ من العمر ٣٢ عاماً كتب: (آه منكم أيها الناس الذين ترونني كئيباً ، حقوداً ، فظ الخلق ... إنكم تظلمونني هكذا ، أنتم لا تعرفون السبب الغامض لسلوكي هذا ، فمنذ سنين الطفولة تفتح قلبي على الرقة والطيبة وكان هدفي دوماً الوصول إلى الكمال وتحقيق الأمور العظيمة ولكن فكروا في أنني أعاني منذ ست سنوات من ألم لا شفاء له ، زده أطباء عاجزون ، لقد ولدت حاد المزاج مرهف الإحساس ، ارتميت في أحضان الحياة والمجتمع ولكني سرعان ما اضطررت إلى الانسحاب من الحياة العامة واللجوء إلى الوحدة ، وعندما كنت أحاول أحياناً التغلب على ذلك كنت أصد بقوة ومع ذلك لم يكن بوسعي أن أقول للناس " ارفعوا أصواتكم – صيحوا فأنا أصم " يا لشدة ألمي عندما يسمع أحد بجانبي صوت ناي لا أستطيع أنا سماعه أو يسمع آخر غناء أحد الرعاة بينما أنا لا أسمع شيئاً ، كل هذا كان يدفعني إلى اليأس وكدت أضع حداً لحياتي البائسة إلا أن الفن والفن وحده هو الذي منعني من ذلك).

وعندما أصبح بيتهوفن يتجنب الناس لجأ إلى الطبيعة يدون فيها أنغامه وألحانه فأبدع موسيقى تعبر تعبيراً صادقاً عن إحساس الإنسان ولا تزال سيمفونياته التسع ومؤلفاته العديدة نبعاً ينهل منه كل محب للموسيقى وكانت أعظم موسيقاه على الإطلاق تلك التي لم يسمعها وأنتجها في مرحلته الأخيرة. فمن وسط أشد أنواع العزلة عمقاً، وهب بيتهوفن فهماً أعمق، لقد كان مريضاً فقيراً أصم مهجوراً من أعز الناس وأحبهم لديه، ومن خلال هذه الأعماق الرهيبة التي كان يقبع فيها أصدر أعظم ألحانه وأكثرها خلوداً وبتضاعف أمراضه في فترة حياته الأخيرة تضاعفت أحزانه لتنتهي حياته بوفاته عام ١٨٢٧م ...

يلاحظ ...

أن بيتهوفن أصيب في العضو الرئيسي بالنسبة لممارسته الموسيقى ومع ذلك لم يثنه ذلك عن الإبداع على أعلى المستويات إن لم نقل فإن إعاقته السمعية أثرت في إنتاجه الموسيقى إلى درجة التميز والإحساس المرهف، وإذا تساءلنا كيف كان بيتهوفن يستمع إلى موسيقاه ؟

فالمصادر تذكر أنه عندما اشتد نقص السمع لديه كان يستمع إلى مقطوعاته الموسيقية وعزفه بوضع طرف مسطرة بين أسنانه بينما يضع طرفها الآخر على البيانو وهو ما يطلق عليه السمع بالطريق العظمي.